اللّص والكلاب

١

اللص والكلاب

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

دار الشروق

الفصل الأول

مرة أخرى يتنفس نسمة الحرية، ولكن الجو غبار خانق وحر لا يطاق. وفى انتظاره وجد بدلته الزرقاء وحذاءه المطاط، وسواهما لم يجد فى انتظاره أحدا. ها هى الدنيا تعود، وها هو باب السجن الأصم يبتعد منطويا على الأسرار اليائسة. هذه الطرقات المثقلة بالشمس، وهذه السيارات المجنونة، والعابرون والجالسون، والبيوت والدكاكين، ولا شفة تفتر عن ابتسامة.. وهو واحد، خسر الكثير، حتى الأعوام الغالية خسر منها أربعة غدرا، وسيقف عما قريب أمام الجميع متحديا. آن للغضب أن ينفجر وأن يحرق، وللخونة أن ييأسوا حتى الموت، وللخيانة أن تكفر عن سحنتها الشائهة. نبوية عليش، كيف انقلب الاسمان اسما واحدا؟، أنتما تعملان لهذا اليوم ألف حساب، وقديما ظننتما أن باب السجن لن ينفتح، ولعلكما تترقبان فى حذر، ولن أقع فى الفخ، ولكنى سأنقض فى الوقت المناسب كالقدر، وسناء إذا خطرت فى النفس انجاب عنها الحر والغبار والبغضاء والكدر. وسطع الحنان فيها كالنقاء غب المطر. ماذا تعرف الصغيرة عن

أبيها؟ . . لا شيء، كالطريق والمارة والجو المنصهر. طوال أربعة أعوام لم تغب عن باله، وتدرجت فى النمو وهى صورة غامضة، فهل يسمح الحظ بمكان طيب يصلح لتبادل الحب. ينعم فى ظله بالسرور المظفر، والخيانة ذكرى كريهة بائدة؟. استعن بكل ما أوتيت من دهاء، ولتكن ضربتك قوية كصبرك الطويل وراء الجدران، جاءكم من يغوص فى الماء كالسمكة ويطير فى الهواء كالصقر ويتسلق الجدران كالفأر وينفذ من الأبواب كالرصاص. ترى بأى وجه يلقاك؟ كيف تتلاقى العينان؟ أنسيت يا عليش كيف كنت تتمسح فى ساقى كالكلب؟ ألم أعلمك الوقوف على قدمين؟، ومن الذى جعل من جامع الأعقاب رجلا؟، ولم تنس وحدك يا عليش ولكنها نسيت أيضا، تلك المرأة النابتة فى طينة نتنة اسمها الخيانة. ومن خلال هذا الكدر المنتشر لا يبسم إلا وجهك يا سناء، وعما قريب سأخبر مدى حظى من لقياك، عندما أقطع هذا الشارع ذا البواكى العابسة، طريق الملاهى البائدة، الصاعدة إلى غير رفعة، أشهد أنى أكرهك. الخمارات أغلقت أبوابها ولم يبق إلا الحوارى التى تحاك فيها المؤامرات، والقدم تعبر من آن لآن نقرة مستقرة فى الطوار كالمكيدة، وضجيج عجلات الترام يكركر كالسب، ونداءات شتى تختلط كأنما تنبعث من نفايات الخضر، أشهد أنى إكرهك. ونوافذ البيوت المغرية حتى هى خالية، والجدران المتجهمة المقشفة، وهذه العطفة الغريبة عطفة الصيرفى، الذكرى المظلمة، حيث سرق السارق، وفى غمضة عين انطوى، الويل للخونة. فى هذه العطفة ذاتها زحف الحصار كالثعبان ليطوق الغافل، وقبل ذلك بعام خرجت من

العطفة تحمل دقيق العيد والأخرى تتقدمك حاملة سناء فى قماطها، تلك الأيام الرائعة التى لا يدرى أحد مدى صدقها، فانطبعت آثار العيد والحب والأبوة والجريمة فوق أديم واحد. وتراءت الجوامع الشاهقة، وطارت رأس القلعة فى السماء الصافية، وانساب الطريق فى الميدان، وتجلت خضرة البستان تحت الأشعة الحامية، وهبت نسمة جافة رغم القيظ منعشة، ميدان القلعة بكل ذكرياته المحرقة. وكان على الوجه الذى لفحته الشمس أن ينبسط وأن يصب ماء باردا على جوفه المستعر كى يبدو مسالما أليفا فيمثل دوره المرسوم كما ينبغى. واجتاز وسط الميدان متجها نحو سكة الإمام. ومضى فيها يقترب من البيت ذى الأدوار الثلاثة فى نهايتها وعلى مفرق عطفتين جانبيتين يتفرع إليهما الطريق الأول. فى هذه الزورة البريئة سيكشف العدو عما أعده للقاء، فادرس طريقك ومواقعه، وهذه الدكاكين التى تشرئب منها الرءوس كالفيران المتوجسة. وجاءه صوت من ورائه يقول:

ـ سعيد مهران!.. ألف نهار أبيض..

توقف عن المسير حتى أدركه الرجل فتصافحا وهما يغطيان على انفعالاتهما الحقيقية بابتسامة باهتة. إذن بات للوغد أعوان، وسيرى قريبا ما وراء هذا الاستقبال، ولعلك تنظر من الشيش مستخفيا كالنساء يا عليش.

ـ أشكرك يا معلم بياظة..

ولحق بهما كثيرون من الدكاكين على الجانبين، وارتفعت حرارة التهانى، وسرعان ما وجد نفسه مطوقا من جميع الجهات

بحشد من أصدقاء غريمه ولا شك، واستبقت الحناجر قائلة :

ـ الحمد لله على سلامتك . .

ـ مبارك للأصدقاء والأحباب . .

ـ قلنا من القلوب سيفرج عنه فى عيد الثورة . .

فقال وهو يتفحصهم بعينيه اللوزيتين العسليتين :

ـ الشكر لله ولكم . .

فربت بياظة على منكبه قائلا :

ـ تعال إلى الدكان لنشرب الشربات!

فقال بهدوء :

ـ فيما بعد، عند العودة . .

ـ العودة؟!

وصاح أحد الرجال موجها حنجرته إلى الدور الثانى من البيت :

ـ يا معلم عليش! . . يا معلم عليش انزل هنئ سعيد مهران!

لا داعى للتحذير يا خنفساء . إنى قادم فى ضوء النهار . . وأعلم أنكم تترقبون . . وعاد بياظة يتساءل :

ـ العودة من أين؟

ـ لدى حساب يجب أن أسويه . .

فتساءل بوجه ممتعض :

ـ مع من؟

ـ أنسيت أننى أب؟ . . وأن ابنتى الصغيرة عند عليش؟

ـ نعم، ولكل خلاف حل فى الشرع . .

وقال آخر :

ـ والتفاهم خير . .

وثالث قال بنبرة المسالم :

ـ سعيد أنت قادم من السجن والعاقل من اتعظ !

فقال وهو يدارى حنقه المختنق :

ـ من قال إنى جئت لغير التفاهم؟ !

وفتحت نافذة فى الدور الثانى وأطل منها عليش فارتفعت الرءوس إليه فى توتر . وقبل أن تبرد كلمة خرج من باب البيت رجل طويل عريض، فى جلباب مقلم، ينتعل حذاء حكوميا فعرف سعيد فيه المخبر حسب الله . وسرعان ما تظاهر بالدهش وقال منفعلا :

ـ مذا دعا إلى إقلاقك وما جئت إلا للتفاهم؟

فمضى نحوه مسرعا وتحسسه مفتشا عما يريب فى صدره أو جيوبه، فعل ذلك بمهارة وخفة ودربة وهو يقول :

ـ اسكت يا بن الثعلب، ماذا تريد؟

ـ جئت للتفاهم على مستقبل ابنتى . .

ـ أنت تعرف التفاهم!

ـ نعم، من أجل ابنتى . .

ـ عندك المحكمة . .

ـ سألجا إليها عند اليأس!

وصاح عليش من أعلى :

ـ دعه يدخل، تفضلوا . .

اجمعهم حولك يا جبان . إنما جئت أجس حصونك . وعند الأجل لا ينفع مخبر ولا جدار . ودخلوا حجرة الاستقبال فتفرقوا فوق الكنب والمقاعد . وفتحت النوافذ فاندفع الضوء والذباب، وتبدت فى البساط السماوى نقط سود من أثر حروق . وحملق عليش من صورة كبيرة فى الجدار معتمدا بقبضتيه عصا غليظة . أما المخبر فقد جلس إلى جانب سعيد وراح يعبث بحبات مسبحة . ودخل عليش سدره فى جلباب فضفاض منتفخ حول جسم برميلى، رافعا وجها مستديرا ممتلئ اللغد تحت ذقن مربع وأنف غليظ محطم العرنين . صافح سعيد متظاهرا بالشجاعة وقال :

ـ حمدا لله على سلامتك!

وسرعان ما تأزم الجو بالصمت وتبودلت نظرات قلقة حتى عاد عليش يقول وكأنما يرغب فى فتح صفحة جديدة :

ـ ما فات فات، وكل ما حصل يقع كل يوم، وقد تحدث أمور

مؤسفة وتنهار صداقات قديمة، ولكن لا يعيب الرجل إلا العيب!

بدا سعيد وهو يتابعه بعينيه البراقتين وجسمه النحيل القوى كأنه نمر يتربص بفيل، ولم يسعه إلا أن يردد قوله:

ـ لا يعيب إلا العيب . .

وحدجته أعين كثيرة عقب ترديده وكفت يد المخبر عن العبث بحبات المسبحة فأدرك هو ما يجول بخاطرهم فقال مستدركا:

ـ أوافقك على ما قلت حرفا بحرف . .

فقال المخبر بضجر:

ـ ادخلوا فى الموضوع وأعفونا من اللف . .

فتساءل سعيد بسخرية خفية:

ـ من أى ناحية؟

ناحية واحدة هى التى يجوز الكلام فيها وهى ابنتك!

ـ وزوجتى وأموالى يا جرب الكلاب! . الويل . . الويل، أريد أن أتلقى نظرة من عينيك. كى أحترم من الآن فصاعدا الخنفساء والعقرب والدودة. سحقا لمن يطرب لأنغام امرأة.

ولكنه هز رأسه بالإيجاب، فقال أحد ماسحى الجوخ:

ـ بنتك فى الحفظ والصون، مع أمها، وشرعا يجب أن تبقى مع أمها بنت ستة أعوام، وأن شئت أزورك بها كل أسبوع . .

فرفع سعيد صوته متعمدا ليسمع من الخارج:

ـ شرعا هى حق لى لشتى الملابسات والظروف . .

فتساءل عليش فى غلظة :

ـ ماذا تقصد؟

ولكن المخبر عاجله قائلا :

ـ لن يجئ من الكلام إلا وجع الدماغ . .

فقال عليش بيقين :

ـ لم أرتكب جريمة ولكنها القسمة والنصيب ، والواجب أيضا ، واجب المروءة دفعنى إلى ما فعلت ، ومن أجل البنت الصغيرة أيضا !

ـ واجب المروءة يا ابن الأفعى ! . الغدر والخيانة المزدوجة . المطرقة والفأس وحبل المشنقة . ولكن ما شكل سناء الآن؟

وقال بهدوء ما استطاع :

ـ لم أتركها فى حاجة ، كانت لديها أموالى ، أموال طائلة . .

فهتف المخبر :

ـ تقصد مسروقاتك؟ ! تلك التى أنكرتها فى المحكمة !

ـ ليكن ، ولكن أين ذهبت؟ !

فصاح عليش :

ـ ولا مليم ! ، صدقونى يار جال ، كانت الحال لا يسر بها عدو ولا حبيب ، وحقا قمت بالواجب . .

فتساءل سعيد فى تحد :

ـ خبرنى كيف أمكنك أن تعيش فى سعة وأن تنفق على الآخرين؟

فصاح عليش محتدا :

ـ هل أنت ربنا حتى تحاسبنى؟

وقال رجل من ماسحى الجوخ :

ـ اخز الشيطان يا سعيد . .

وقال المخبر :

ـ أنا عارفك وفاهمك، أنا خير من يقرأ داخل رأسك، ولكنك ستهلك نفسك، لا تخرج عن موضوع البنت فهذا خير لك . .

فتراجع سعيد باسما وهو يخفى عينيه فى الأرض وقال باستسلام :

ـ بالحق نطقت ياحضرة المخبر . .

ـ أنا عارفك وفاهمك ولكنى سأماشيك احتراما لهؤلاء الرجال، هاتوا البنت، أليس الأفضل أن نعرف رأيها أولا؟

ـ كيف يا حضرة المخبر؟

ـ يا سعيد أنا فاهمك، أنت لا تريد البنت، ولا تستطيع أن تأويها، ولن تجد لنفسك مأوى إلا بعد الجهد، ولكن من العدل والرحمة أن تراها، هاتوا البنت . .

بل هاتوا أمها. كم أرغب أن تلتقى العينان. كى أرى سرا من أسرار الجحيم. الفأس والمطرقة. وقام عليش ليجىء بها.

وعندما ترامى وقع الأقدام القادمة خفق قلب سعيد خفقة موجعة وتطلع إلى الباب وهو يعض على باطن شفتيه. مسح تطلع شيق وحنان جارف جميع عواصف الحنق. وظهرت البنت بعينين داهشتين بين يدى الرجل، ظهرت بعد انتظار طال ألف سنة. وتبدت فى فستان أبيض أنيق وشبشب أبيض كشف عن أصابع قدميها المخضوبتين. وتطلعت بوجه أسمر وشعر أسود مسبسب فوق الجبين فالتهمتها روحه. وجعلت تقلب عينيها فى الوجوه بغرابة، وفى وجهه خاصة باستنكار شديد لشدة تحديقه ولشعورها بأنها تدفع نحوه، وإذا بها تفرمل قدميها فى البساط وتميل بجسمها إلى الوراء. لم ينزع منها عينيه ولكن قلبه انكسر، انكسر حتى لم يبق فيه إلا شعور بالضياع. كأنها ليست بابنته. رغم العينين اللوزيتين والوجه المستطيل والأنف الأقنى الطويل. ونداء الدم والروح ما شأنه؟ أم هو الآخر قد خان وغدر؟. وكيف له رغم ذلك كله بمقاومة هذه الرغبة الجامحة فى ضمها إلى صدره حتى الفناء؟

وقال المخبر بضجر ودون اكتراث:

ـ أبوك يا شاطرة!

وقال عليش بوجه لا يبين عن شىء.

ـ سلمى على بابا..

كالفأرة! . مم تخاف! . ألا تدرى كم يحبها! . ومد نحوها يده ولكنه بدل الكلام شرق فازدرد ريقه . وابتسم فى رقة وإغراء . وقالت سناء لا . وتحركت لتتسلل راجعة لولا الرجل وراءها . وهتفت «ماما» فدفعها الرجل برقة وهو يقول :

ـ سلمى على بابا . . .

وتجلت فى الأعين نظرات اهتمام، وشماتة . وآمن سعيد بأن جلد السجن ليس بالقسوة التى كان يظنها . وقال متوسلا :

ـ تعالى سا سناء . .

ولم يعد يحتمل رفضها فقام نصف قومة ومال نحوها فهتفت :

ـ لا . .

ـ أنا بابا .

فرفعت عينيها إلى عليش سدرةمستغربة فقال سعيد بإصرار :

ـ أنا بابا، أنا ، تعالى . .

فتأبت واشتد ميلها إلى الوراء . جذبها نحوه بشىء من القوة . صرخت . ضمها إلى صدره فدافعته باكية . ومال نحوها ليلثم ـ رغم هزيمته ويأسه ـ فاها أو خدها ولكن شفتيه لم تلثما إلا ساعدها المتحرك فى عصبية غير راحمة .

ـ أنا بابا، لا تخافى، أنا بابا . .

وأفعمت رائحة شعرها روحه بذكرى أمها فتقبضت أساريره . وازدادت البنت مدافعة وبكاء حتى قال المخبر :

ـ على مهلك البنت لا تعرفك . .

فتركها تجرى يائسا ، ثم اعتدل فى جلسته وهو يقول بغضب :

ـ سوف آخذها . .

ومضت هنيهة صمت قبل أن يقول له بياظة :

ـ هدىء نفسك أولا . .

فقال بإصرار :

ـ لابد أن تعود إلىّ . .

فقال المخبر بحدة :

ـ دع القرار للقاضى . .

ثم التفت نحو عليش متسائلا :

ـ نعم؟

ـ الأمر لا يخصنى فى شىء ولكن أمها لن تفرط فيها إلا بالشرع . .

فقال المخبر :

ـ كما قلت أول الأمر ، كلمة واحدة لا ثانى لها ، وهى المحكمة!

وشعر سعيد بأنه لو تمادى فى الغضب لا نفجر جنونه فتسلط على مشاعره بقوة غير طبيعية مذكرا نفسه بأشياء كاد ينساها ، وقال بهدوء نسبى :

ـ نعم المحكمة!

فقال بياظة:

ـ والبنت كما ترى تعيش فى رعاية وراحة..

وقال المخبر فى لهجة لم تخل من سخرية:

ـ ابحث أولا عن طريق مستقيم تأكل منه لقمتك..

رغم هذا بدا أنه يسيطر على نفسه أكثر فأكثر حتى قال:

ـ نعم، كل هذا حق، ولا داعى للأسف من ناحيتى، وسأعاود التفكير فى الأمر كله، ولا شك أنه خير أن أنسى الماضى وأن أبحث عن عمل حتى أهيىء للبنت مكانا طيبا فى الوقت المناسب.

وساد الصمت دهشة فتبودلت نظرات مصدقة وغير مصدقة، وكوَّر المخبر قبضته على المسبحة متسائلا:

ـ انتهينا؟

فقال سعيد:

ـ نعم، ولكنى أريد كتبى..

ـ كتبك!؟

ـ نعم..

فصاح عليش:

ـ ضاع أكثرها بيد سناء وسأحضر لك ما تبقى منها.

وغاب الرجل برهة ثم عاد حاملا على يديه عامودا متوسطا من الكتب، فوضعه وسط الحجرة. وقام سعيد إلى المجموعة فتناول كتابا إثر آخر وهو يقول بأسف:

ـ ضاع أكثرها حقا..

وضحك المخبر متسائلا:

ـ من أين لك هذا العلم؟

ثم وهو ينهض معلنا انتهاء المقابلة:

ـ أكنت تسرق فيما تسرق الكتب؟

وابتسم الجميع ولكن سعيد أقبل يحمل الكتب دون أن يبتسم..

الفصل الثانى

نظر إلى الباب المفتوح، المفتوح دائما كما عهده من أقصى الزمن، وهو يقترب منه ضاربا فى طريق الجبل. مثوى ذكريات ورحمة فى حى الدراسة القائم بين ذراعى المقطم. الأرض أطفال ورمال ودواب وهو من التعب والانفعال يلهث. وجرت عيناه وراء الصغيرات من البنات بلا ملل. وما أكثر الكسالى المستلقين فى ظل الجبل بعيدا عن الشمس المائلة. ووقف على عتبة الباب المفتوح قليلا، ينظر ويتذكر، ترى متى عبر هذه العتبة آخر مرة؟. يا له من مسكين بسيط كالمساكين فى عهد آدم. حوش كبير غير مسقوف فى ركنه الأيسر نخلة عالية مقوسة الهامة، وإلى اليمين من دهليز المدخل باب حجرة وحيدة مفتوح. لا باب مغلق فى هذا المسكن العجيب. وخفق قلبه فأرجعه إلى عهد بعيد طرى، طفولة وأحلام وحنان أب وأخيلة سماوية. المهتزون بالأناشيد يملئون الحوش والله فى أعماق الصدور يتردد. انظر واسمع وتعلم افتح قلبك. . هكذا كان يقول الأب. وفرحة كالجنة بعثها الحلم والإيمان، وفرحة بالغناء والشاى الأخضر أيضا. ترى كيف حالك

يا شيخ على يا جنيدى يا سيد الأحياء؟ . وترامى إليه صوت من داخل الحجرة وهو يختم الصلاة فابتسم سعيدومرق من باب الحجرة حاملا كتبه . وهاك الشيخ متربعا على سجادة الصلاة غارقا فى التمتمة . وهذه الحجرة القديمة لم يكد يتغير منها شىء . الحصر جددت شكرا للمريدين ومازال الفراش البسيط لصق الجدار الغربى ، وشعاع الشمس المائلة ينسكب من كوة عند قدميه ، أما بقية الجدران فقد اختفى أسفلها وراء أرفف المجلدات ، ورائحة البخور المستقرة كأنما لم تتبخر منذ عشرات الأعوام . تخفف من حمله واقترب من الشيخ قائلا :

ـ السلام عليكم يا سيدى ومولاى !

أتم الشيخ تمتمته ثم رفع رأسه عن وجه نحيل فائض الحيوية بين الإشراق تحف به لحية بيضاء كالهالة . وعلى الرأس طاقية بيضاء منغرزة فى سوالف كثة فضية . حدجه بعين رأت الدنيا ثمانين عاما ورأت الآخرة . عين لم تفقد جاذبيتها ونفاذها وسحرها فلم يملك سعيدمن أن يهوى على يده فيقبلها وهو يدفع دمعة باطنية استقطرها من جو الذكريات والأب والأمل والسماء فى الماضى البعيد .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله . .

هذا صوت زمان ! . ترى كيف كان صوت أبيه؟ . كأنما يتذكر صوت أبيه بعينيه فيرى وجهه وشفتيه وهما يتحركان ولكن الصوت انتهى . وأين المريدون ، أين أهل الذكر ، يا سيدى محمد على بابك ! . وتربع أمامه على الحصيرة وهو يقول :

ـ أجلس دون استئذان لأنى أذكر أنك تحب ذلك ! .

شعر بأن الشيخ ابتسم من دون أن ترتسم على شفتيه الغارقتين فى البياض ابتسامة. ترى هل تذكره؟ .

ـ لا تؤاخذنى، لا مكان لى فى الدنيا إلا بيتك . .

ترك الشيخ رأسه يهوى فى صدره وهو يقول بصوت هامس :

ـ أنت تقصد الجدران لا القلب . .

فتنهد سعيد، وبدا لحظة كأنه لم يفهم شيئا، ثم قال بصراحة ودون مبالاة :

ـ خرجت اليوم فقط من السجن . .

فأغمض الشيخ عينيه متسائلا :

ـ السجن !

ـ نعم، أنت لم ترنى منذ أكثر من عشرة أعوام، وفى تلك الفترة من الزمن حدثت أمور غريبة، ولعلك سمعت عنها من بعض مريديك الذين يعرفوننى . .

ـ لأننى أسمع كثيرا لا أكاد أسمع شيئا . .

ـ على أى حال لا أحب أن ألقاك متنكرا، لذلك أقول لك أننى خرجت اليوم فقط من السجن . .

فهز رأسه فى بطء وهو يفتح عينيه قائلا فيما يشبه الأسى :

ـ أنت لم تخرج من السجن . .

فابتسم سعيد. كلمات العهد القديم تتردد من جديد. حيث لكل لفظ معنى غير معناه. وقال:

- يا مولاى، كل سجن يهون إلا سجن الحكومة..

فرنا إليه بعين رائقة ثم تمتم:

- يقول إن كل سجن يهون إلا سجن الحكومة..

فابتسم سعيد مرة أخرى. كاد ييأس من التلاقى. ثم تساءل فى حرارة:

- هل تذكرتنى؟

فغمغم الشيخ دون مبالاة:

- ولك الساعة التى أنت فيها!

ومع أنه لم يشك فى أنه تذكره إلا أنه تساءل مستزيدا من الثقة:

- وأبى عم مهران الله يرحمه؟

- الله يرحمنا..

- ما أجمل الأيام الماضية!

- قل ذلك إن استطعت عن الساعة..

- ولكن..

- الله يرحمنا!

- قلت إنى خارج اليوم من السجن..

فهز رأسه فى طرب مفاجئ قائلا :

ـ وقال وهو على الخازوق باسما : جرت مشيئته بأن نلقاه هكذا . .

ـ أبى كان يفهمك . كم أعرضت عنى حتى خلتك تطردنى طردا . ورجعت بقدمى إلى جو البخور والقلق . هكذا يفعل موحش القلب الذى لا بيت له . وقال :

ـ مولاى ، قصدتك فى ساعة أنكرتنى فيها ابنتى . .

فقال الشيخ متأوها :

ـ يضع سره فى أصغر خلقه!

فقال جادا :

ـ قلت لنفسى إذا كان الله قد مد له العمر فسأجد الباب مفتوحا . .

فقال الشيخ بهدوء :

ـ وباب السماء كيف وجدته؟

ـ لكنى لا أجد مكانا فى الأرض، وابنتى أنكرتنى . .

ـ ما أشبهها بك . .

ـ كيف يا مولاى؟

ـ أنت طالب بيت لا جواب . .

فأسند رأسه المفلفل إلى يده المعروقة الدكناء وقال :

ـ كان أبى يقصدك عند الكرب ، وجدت نفسى . .

فقاطعه بهدوء لا يخرج عنه :

ـ أنت تريد بيتا ليس إلا . .

تضاعف شعوره بأنه يعرفه ، وقلق دونما سبب مفهوم ، وقال :

ـ ليس بيتا فحسب ، أكثر من ذلك ، أود أن أقول اللهم أرض عنى . .

فقال الشيخ المترنم :

ـ قالت المرأة السماوية «أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض؟!» .

وضج الخلاء فى الخارج بنهيق حمار ختم بحشرجة كالبكاء . وغنى صوت لا حلاوة فيه « البخت والقسمة فين» . كما ضبطه أبوه وهو يغنى «حزر فزر» فلكمه برحمة وقال له «أهذه أغنية مناسبة ونحن فى الطريق إلى الشيخ المبارك» . وترنح الأب وسط الذكر ، غابت عيناه ، بح صوته ، تصبب عرقا .

وجلس عند النخلة يشاهد صفى المريدين تحت ضوء الفانوس ويقضم دومة وينعم بسعادة عجيبة . وكان ذلك سابقا لنزول أول قطرة حارقة من شراب الحب . وأغمض الشيخ عينيه فكأنه نام . وألف هو المنظر والجو حتى البخور لم يعد يشمه . وطرأت فكرة بأن العادة أساس الكسل والملل والموت . وهى المسئولة عما عانى

من خيانة وجحود وضياع جهد العمر سدى. وتساءل ليوقظه:

ـ ألا تزال تحيا الأذكار هنا؟

فلم يجبه. وساوره القلق فعاد يسأل:

ـ ألا ترحب بى؟

ففتح الشيخ عينيه قائلا:

ـ ضعف الطالب والمطلوب..

ـ لكنك صاحب البيت!

فقال فى مرح طارئ:

ـ صاحب البيت يرحب بك. وهو يرحب بكل مخلوق، بكل شىء.. فابتسم سعيد متشجعا، فاستدرك الشيخ قائلا:

ـ أما أنا فصاحب لا شىء..

وكان ضوء الشمس المرسوم على الحصيرة قد انسحب إلى الجدار فقال سعيد:

ـ على كل حال فهذا البيت بيتى، كما كان بيت أبى، وبيت كل قاصد، وأنت يا مولاى جدير بكل شكر..

فقال الشيخ:

ـ اللهم إنك تعلم عجزى عن مواضع شكرك فاشكر نفسك عنى، هكذا قال بعض الشاكرين!

فقال سعيد برجاء :

ـ إنى فى حاجة إلى كلمة طيبة . .

فقال فى عتاب حليم :

ـ لا تكذب . .

وأحنى رأسه حتى انتشرت لحيته على صدره وراح مستغرقا . انتظر سعيد صابرا، ثم تزحزح إلى الوراء ليسند ظهره إلى رف من رفوف الكتب، وجعل يتأمل الشيخ الجميل . ولما طال انتظاره سأله :

ـ هل من خدمة أؤديها لك؟

فلم يعن بالالتفات إلى قوله، ومضى زمن صامت وعينا سعيد تتابع طابورا من النمل يزحف بخفة بين ثنيات الحصيرة . وإذا بالشيخ يقول :

ـ خذ مصحفا واقرأ . .

ـ غادرت السجن اليوم ولم أتوضأ . .

ـ توضأ واقرأ . .

فقال بلهجة جديدة شاكية :

ـ أنكرتنى ابنتى، وجفلت منى كأنى شيطان، ومن قبلها خانتنى أمها!

فعاد الشيخ يقول برقة :

ـ توضأ واقرأ . .

ـ خانتني مع حقير من أتباعي، تلميذ كان يقف بين يدي كالكلب، فطلبت الطلاق محتجة بسجني، ثم تزوجت منه . .

ـ توضأ واقرأ . .

فقال بإصرار :

ـ ومالي، النقود والحلي، استولى عليها، وبها صار معلما قد الدنيا، وجميع أندال العطفة أصبحوا من رجاله . .

ـ توضأ واقرأ . .

بعبوس وقد انتفخت عروق جبينه :

ـ لم يقبض علي بتدبير البوليس، كلا، كنت كعادتي واثقا من النجاة، الكلب وشى بي، بالاتفاق معها وشى بي، ثم تتابعت المصائب حتى أنكرتني ابنتي . .

فقال الشيخ بعتاب :

ـ توضأ واقرأ ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾، واقرأ ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ وردد قول القائل «المحبة هي الموافقة أي الطاعة له فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدّر» .

ها هو أبي يسمع ويهز رأسه طربا . ويرمقني باسما كأنما يقول لي اسمع وتعلم . وأنا سعيد وأود غفلة لأتسلق النخلة أو أرمي طوبة لأسقط بلحة . وأترنم سرا مع المنشدين . ومع العودة ذات

مساء إلى بيت الطلبة بالجيزة رأيتها مقبلة تحمل سلة. جميلة وجذابة، طاوية هيكلها على جميع ما قدر لى من هناء الجنة وعذاب الجحيم. ماذا كان يعجبك من إنشاد المنشدين؟. لما بدا لاح منار الهدى، ورأيت الهلال ووجه الحبيب. لكن الشمس لم تغرب بعد. آخر خيط ذهبى يتراجع من الكوة. أمامى ليلة طويلة. هى أولى ليالى الحرية. وحدى مع الحرية. أو مع الشيخ الغائب فى السماء. المردد لكلمات لا يمكن أن يعيها مقبل على النار. ولكن هل من مأوى آخر آوى إليه؟..

الفصل الثالث

قلب صفحات جريدة «الزهرة» حتى عثر على ركن الأستاذ رءوف علوان. وراح يقرأ بشغف وهو لم يزل على مبعدة أذرع من بيت الشيخ على الجنيدى حيث قضى ليلته. لكن من أى مدد يستمد رءوف علوان وحيه؟. ملاحظات عن موضة السيدات، مكبرات الصوت، رد على شكوى زوجة مجهولة! . أفكار لذيذة حقا ولكن أين رءوف علوان؟. بيت الطلبة وتلك الأيام العجيبة الماضية. الحماس الباهر الممثل فى صورة طالب ريفى رث الثياب كبير القلب. والقلم الصادق المشع. ترى ماذا حدث للدنيا؟. وماذا وراء هذه الأعاجيب والأسرار؟. وهل ثمة أحداث وقعت كأحداث عطفة الصيرفى؟. حوادث نبوية وعليش والبنت الصغيرة المحبوبة التى أنكرت أباها. علىَّ أن أقابله. الشيخ أعطانى فراشا فوق الحصيرة للنوم ولكنى فى حاجة إلى نقود. علىَّ أن أبدأ الحياة من جديد يا أستاذ علوان. أنت لا تقل عظمة عن الشيخ على، أنت أهم ما لدى فى هذه الحياة التى لا أمان لها. وتوقف عن السير أمام مبنى جريدة الزهرة بميدان المعارف. ضخم

حقا بحيث لا يسهل السطو عليه! . وهذا الطابور من السيارات المحدق به كحراس الجدران الرهيبة . وأصوات المطابع وراء قضبان البدروم كهينمة الراقدين فى العنابر . ودخل ضمن تيار الداخلين ثم وقف أمام مكتب الاستعلامات وسأل بصوت غليظ النبرات :

ـ الأستاذ رءوف علوان؟

فرمقه الموظف فيما يشبه الامتعاض لنظرة عينيه اللوزيتين الجريئة لحد الوقاحة . وأجابه بجفاء :

ـ الدور الرابع . .

قصد من توه المصعد فوقف بين قوم بدا فيهم غريب المنظر ببدلته الزرقاء وحذائه المطاط ، وزاد من غرابته نظرته الحادة الجريئة وأنفه الأقنى الطويل . ولمح بين الواقفين فتاة فلعن فى سره نبوية وعليش وتوعدهما بالويل . وما أن انتهى إلى طرقة الدور الرابع حتى مرق إلى حجرة السكرتير قبل أن يتمكن الساعى من اعتراضه . وجد نفسه فى حجرة كبيرة مستطيلة زجاجية الجدار المطل على الطريق ، وليس بها موضع لجالس . وسمع السكرتير وهو يؤكد لمتحدث فى التليفون أن الأستاذ رءوف مجتمع برئيس التحرير وأنه لن يعود قبل ساعتين . شعر بأنه غريب حقا ، لكنه وقف دون مبالاة ، يحملق فى الوجوه بوقاحة كأنما يتحداهم . وقديما كان يرمق أمثالهم بعين تود ذبحهم ، فما حال هؤلاء اليوم؟ . أما رءوف فلن يصفو له هنا . وما هذا المكان بالملتقى المناسب للأصدقاء القدامى . ورءوف اليوم رجل عظيم فيما يبدو . عظيم جدا كهذه الحجرة . ولم يكن فيما مضى إلا محررا

بمجلة النذير، مجلة منزوية بشارع محمد على. ولكنها كانت صوتا مدويا للحرية. ترى كيف أنت اليوم يا رءوف؟. هل تغير مثلك يا نبوية؟. هل ينكرنى مثلك يا سناء؟. ولكن بعدا لأفكار السوء. هو الصديق والأستاذ، وسيف الحرية المسلول، وسيظل كذلك رغم العظمة المخيفة والمقالات الغريبة وسكرتاريته الرفيعة. وإذا كانت هذه المجلة لن تمكننى من عناقك فعن دفتر التليفون سأعرف مسكنك. .

افترش العشب الندى عند كورنيش النيل بشارع النيل ومضى ينتظر. انتظر طويلا على كثب من شجرة حجبت ضوء المصباح الكهربائى، تحت سماء غاب عنها الهلال مبكرا تاركا النجوم تومض فى ظلمة رهيبة. وجرت نسمة رقيقة لطيفة مقطرة من أنفاس الليل عقب نهار أحمر طغى فيه الصيف طغيانه. ولم تفارق عيناه الفيللا رقم ١٨ لحظة واحدة، موليا النيل ظهره شابكا راحتيه حول ركبتيه. يا لها من فيللا خالية من ثلاث جهات، والجهة الرابعة حديقة مترامية. وأشباح هذه الأشجار تتناجى حول جسد الفيللا الأبيض، منظر قديم طالما شهد بالثراء وذكريات التاريخ. ولكن كيف؟، ما الوسيلة؟، وفى هذه المدة القصيرة؟، حتى اللصوص لا يحلمون بذلك. اعتدت فى الماضى ألا أنظر إلى فيللا هكذا إلا عند رسم خطة للسطو عليها، فكيف آمل اليوم مودة وراء فيللا؟!. رءوف علوان أنت لغز وعلى اللغز أن يتكلم، أليس عجيبا أن يكون علوان على وزن مهران؟!. وأن يمتلك عليش تعب عمرى كله بلعبة الكلاب؟.

ووثب واقفا عند توقف سيارة أمام باب الفيللا . ولما رأى البواب يفتح الباب على مصراعيه عبر الطريق بسرعة خاطفة ثم تصدى للسيارة منحنيا قليلا ليراه صاحبها ، ولكن الرجل لم يعرفه فى الظلام فهتف بصوته الغليظ القوى :

ـ أستاذ رءوف . . أنا سعيد مهران !

اقترب رأس الرجل من النافذة المفتوحة وهو يقول بصوت حلقى متزن :

ـ سعيد ! . . أووه . .

لم يستطيع قراءة وجهه ، لكنه وجد فى لهجته ما شجعه ، ومضت هنيهة صمت وجمود دون أن يفتح باب السيارة ، ثم فتح الباب وجاءه الصوت قائلا :

ـ اركب . .

بداية حسنة . رءوف علوان هو رءوف علوان بالرغم من السكرتارية الزجاجية والفيللا العجيبة . وانحدرت السيارة فى ممشى كضلع القيثارة متجهة نحو مدخل السلاملك .

ـ سعيد ، كيف حالك يا رجل ، ومتى خرجت ؟

ـ أمس . .

ـ أمس ؟

ـ نعم ؟ كان يجب أن أقصدك ولكنى شغلت بمسائل عاجلة ، وكنت فى حاجة إلى الراحة فبت ليلتى عند الشيخ على الجنيدى ، أتذكره ؟

فقال وهما يغادران السيارة إلى بهو الاستقبال :

ـ أووه! . . شيخ المرحوم والدك، شهدت حلقاته معك أكثر من مرة . .

ـ كانت مسلية!

ـ وكان يعجبنى غناء المنشدين .

وأضاء خادم النجفة فخطفت بصر سعيد بمصابيحها الصاعدة ونجومها وأهلتها . وعلى ضوئها المنتشر تجلت مرايا الأركان عاكسة الأضواء، وتبدت التحف الثاوية على الحوامل المذهبة كأنما بعثت من ظلمات التاريخ، وتهاويل السقف وزخارف الأبسطة والمقاعد الوثيرة والوسائد المستقرة عند ملقى الأقدام . وأخيرا استقر البصر على وجه الأستاذ الممتلئ المستدير، ذلك الوجه الذى طالما عشقه وحفظه على ظهر قلب لطول ما أحدق فيه منصتا . وبينا راح الخادم يفتح بابا مطلا على الحديقة فى الجدار الأيسر ويكشف عنه ستائره مضى وهو ينظر إلى الأستاذ ويلحظ الروائع مسترقا . وسرعان ما جرى تيار دسم مفعم بالعبير، واختلطت الأضواء بالشذا فأوشك رأسه أن يدور . وجهه امتلأ كوجه بقرة . وشىء خفى سرى فى شخصه جعله ممتنعا رغم طلاقة الوجه وحسن السلوك وابتسامة الثغر . وثمة رائحة سحرية لا تصدر إلا عن دم أزرق رغم أنفه المائل إلى الفطس وفكيه البارزين . وقلبه يخفق فى إشفاق ويتساءل عن المقر إن انهدم الركن الوحيد الباقى . وجلس رءوف على كنبة قريبة من باب الفراندا وأشار إليه أن يجلس على مقعد وثير يمثل جانبا من ضلع لمربع من المقاعد تطوق عامودا

نورانيا شفافا موشى بصور أسطورية، فجلس بلا تردد وبلا مبالاة كعادته. ومد الأستاذ ساقيه الطويلتين متسائلا:

ـ هل جئتنى فى الجريدة؟

ـ نعم ولكنى اقتنعت بأنها مكان غير مناسب للقاء!

فضحك عن أسنان اكتنف منابتها لون أسود ثم قال:

ـ الجريدة عبارة عن دوامة لا تهدأ، وهل انتظرت هنا طويلا؟

ـ عمر كامل!

فضحك رءوف مرة أخرى وقال بلهجة ذات معنى:

ـ لا شك أنك عرفت هذا الطريق من قبل؟!

فضحك سعيد أيضا قائلا:

ـ طبعا، عرفت فيه زبائن لا ينسى فضلهم، فيللا فاضل باشاحسنين وقد خرجت من زيارتها بألف جنيه، وقرط ماسى نادر من فيللا الممثلة كواكب...

وجاء الخادم يدفع أمامه نضدا قامت عليه زجاجة وكأسان. وجردل صغير أنيق بنفسجى اللون ملئ ثلجا، وطبق نضد فوقه التفاح على هيئة هرم. وصحاف فواتح شهية، وإبريق مياه فضى. وأومأ الأستاذ للخادم فانسحب وراح يملأ بنفسه الكأسين ثم قدم أحدهما إلى سعيد ورفع الأخرى قائلا:

ـ صحة الحرية..

وأفرغ سعيد كأسه دفعة واحدة على حين تناول رءوف رشفة ثم سأله :

ـ وكيف حال بنتك؟ . أووه، نسيت أسألك لم بت ليلتك عند الشيخ على؟

إنه لم يدر شيئا ولكنه مازال يذكر أنه أنجب بنتا . وفى إيجاز بارد قاس سرد له تاريخ مأساته حتى قال :

ـ أمس زرت عطفة الصيرفى فوجدت مخبرا فى انتظارى كما توقعت، وأنكرتنى ابنتى وصرخت فى وجهى . .

وملأ كأسا أخرى دون استئذان فقال رءوف :

ـ حكاية مؤسفة، أما بنتك فمعذورة، إنها لا تتذكرك، وسوف تعرفك وتحبك . .

ـ لم تعد لى ثقة فى جنسها كله . .

ـ هكذا أنت الآن، أما غدا فمن يدرى؟ ستغير رأيك بنفسك، وهذا هو حال الدنيا . .

ورن جرس التليفون فقام رءوف إليه وتناول السماعة ثم أصغى قليلا، وسرعان ما ابتهج وجهه بابتسامة عريضة، فرفعه ومضى به إلى الفراندا . تابعه سعيد من أول الأمر بعينيه الحادتين . امرأة؟! . . هذه الابتسامة وهذه الرحلة إلى الظلام لا تكونان إلا لامرأة . ترى أما زال أعزب؟ . ها هما يجلسان جنبا إلى جنب، يتبادلان الشراب والحديث، ولكن ثمة شعورا كالإحساس الخفى

المنذر باكتشاف دمل يوسوس له بأن معاودة هذا اللقاء شيء عسير حقا. لا يدرى لماذا يطبق عليه. وهو يصدقه كإنسان يعتمد كثيرا على غرائزه الملهمة. إنه اليوم من أهل الطريق الذى لم يعتد زيارته إلا معتديا. ولعله تورط فى الترحيب به مضطرا. ولعله تغير حقا فلم يبق من الشخص القديم إلا ظل صورته. وجلجلت ضحكة فى الفراندا فازداد تشاؤما. وتناول تفاحة بهدوء ومضى يقضمها. ما حياته إلا امتداد لأفكار هذا الرجل الضاحك فى التليفون فإذا كان قد خانها فالويل له. وأخيرا عاد رءوف علوان من الفراندا فوضع التليفون على حامله ثم جلس وهو يبدو راضيا تماما:

ـ مباركة عليك الحرية، هى كنز ثمين يعزى عن فقد أى شيء مهما غلا..

فتناول قطعة من البسطرمة وهو يهز رأسه بالإيجاب ولكن دون اهتمام جدى:

ـ وها أنت تخرج من السجن لتجد دنيا جديدة..

وملأ كأسين ومضى سعيد يلتهم ألوان الطعام بشراهة. وحانت منه نظرة إلى صاحبه فابتسم هذا بسرعة ليغطى على نظرة امتعاض!. أنت مجنون إن تصورت أنه يرحب بك من قلبه. ماهى إلا مجاملة بنت حياء، ولن يلبث أن يتبخر هذا الحياء. كل خيانة تهون إلا هذه. ياللفراغ الذى سيلتهم الدنيا. ومد رءوف يده إلى علبة سجائر محلاة بنقوش صينية فى تجويف بالعامود المضيء فتناول سيجارة وهو يقول:

ـ ياعم سعيد، زال تماما جميع ما كان ينغص علينا صفو الحياة . .

فقال سعيد من فم مكتظ :

ـ طالما هزتنا الأنباء فى السجن، من كان يحلم بشىء كهذا؟!

ثم وهو يحدجه بنظرة باسمة :

ـ لا حرب الآن!

ـ لتكن هدنة!، ولكل جهاد ميدان . .

وألقى سعيد نظرة فيما حوله قائلا :

ـ وهذا البهو الرائع كالميدان . .

وأسف على إفلات هذه الملاحظة . ولمح فى عينى صاحبه نظرة باردة . ألا يعرف لسانك ما الأدب! . وتساءل رءوف بهدوء غاضب :

ـ أى وجه شبه بين هذا البهو والميدان؟

فزاغ قائلا :

ـ أقصد أنه مثال للذوق الرفيع . .

فضيق رءوف عينيه امتعاضا وقال بسخط واضح :

ـ المراوغة عبث، أفصح عما بنفسك، أنا أفهمك وأنت خير من يعرف ذلك!

فضحك سعيد متوددا وهو يقول :

ـ لم أقصد سوءا على الإطلاق . .

ـ يجب أن تذكر دائما أنى أعيش بعرقى وكدى . .

ـ هذا ما لا شك فيه مطلقا ، بالله لا تغضب هكذا . .

فراح يدخن السيجارة بسرعة عصبية دون أن ينطق حتى اضطر سعيد إلى التوقف عن الأكل وقال بلهجة المعتذر :

ـ لم أتخلص بعد من جو السجن فيلزمنى وقت طويل حتى أسترجع آداب الحديث والسلوك ، ولا تنس أن رأسى مازال دائرا من أثر المقابلة الغريبة التى أنكرتنى فيها ابنتى . .

والظاهر أن رءوف أعرب عن عفوه برفع حاجبيه الصاعدة شعيراتهما إلى أعلى ، ولما رأى عينى الرجل تنتقلان بين وجهه وبين الطعام كأنما يستأذنه فى معاودة الأكل قال بهدوئه السابق :

ـ كل . .

فهجم سعيد على بقايا الصحاف بلا تردد ولا تأثر بما كان حتى مسحها . وعند ذاك قال رءوف ولعله رغب فى انهاء المقابلة :

ـ يجب أن يتغير الحال تماما ، هل فكرت فى المستقبل؟

فقال سعيد وهو يشعل سيجارة :

ـ لم يسمح الماضى بعد بالتفكير فى المستقبل . .

ـ يخيل إلىّ أن النساء أكثر عددا من الرجال فلا تكترث لخيانة امرأة ، أما بنتك فستعرفك يوما وتحبك ، المهم الآن أن تبحث لك عن عمل . .

فقال وهو ينظر إلى تمثال إله صينى بدا آية فى الوقار والنعاس :

ـ تعلمت فى السجن الخياطة!

فتساءل الأستاذ فى دهشة :

ـ أترغب فى أن تفتح دكان خياط؟

فقال بهدوء :

ـ بكل تأكيد كلا . . !

ـ ماذا إذن؟

فقال وهو يحدجه بنظرة وقحة :

ـ لم أتقن فى حياتى إلا حرفة واحدة . .

فتساءل كالمنزعج :

ـ أترجع إلى اللصوصية؟

ـ هى مجزية جدا كما تعلم . .

فصرخ بحدة :

ـ كما تعلم! من أين لى أن أعلم؟!

فرمقه بدهشة قائلا :

ـ لم تغضب هكذا؟ قصدت أن أقول كما تعلم عن ماضى، أليس كذلك؟ وخفض رءوف عينيه كأنما يقنع نفسه بقوله ولكن وضح أنه لم يعد فى الإمكان أن يعود وجهه إلى صفائه الطبيعى .

وقال بلهجة من يرغب فى الإجهاز على الحديث :

ـ سعيد، ليس اليوم كالأمس، كنت لصا وكنت صديقا لى فى ذات الوقت لأسباب أنت تعرفها، ولكن اليوم غير الأمس، إذا عدت إلى اللصوصية فلن تكون إلا لصا فحسب!

فانتتر واقفا فى عصبية وهو يواجه اليأس فى صراحته القاسية، ولكنه خنق انفعاله بإرادة من حديد فعاد إلى الجلوس وهو يقول بهدوء :

ـ اختر لى عملا مناسبا!

ـ أى عمل ، تكلم أنت وأنا مصغ إليك . .

فقال بسخرية خفية فى الأعماق :

ـ يسعدنى أن أعمل صحفيا فى جريدتك! ، أنا مثقف، وتلميذ قديم لك، قرأت تلالا من الكتب بإرشادك، وطالما شهدت لى بالنجابة . .

فهز رءوف رأسه فى ضجر حتى لعب الضوء فوق شعره الأسود الغزير وقال :

ـ لا وقت للمزاح، أنت لم تمارس الكتابة قط، وأنت خرجت أمس فقط من السجن، وأنت تعبث وتضيع وقتى بلا طائل . .

فقال بامتعاض :

ـ إذن على أن أختار عملا حقيرا؟

ـ لا عمل حقير على الإطلاق مادام شريفا . .

غلبته المرارة بعد اليأس فلم يعد يبالى بشىء، وبسرعة جرى ببصره فى أنحاء البهو الأنيق، ثم قال فيما يشبه التحدى :

ـ ما أجمل أن ينصحنا الأغنياء بالفقر . . !

فكان جوابه أن نظر فى ساعته فقال سعيد برقة :

ـ أنا واثق من أننى أخذت من وقتك أكثر مما يجوز . .

فقال رءوف بصراحة شمس يوليو :

ـ نعم فأنا مرهق بالعمل !

فوقف وهو يقول :

ـ أشكر لك الضيافة والعشاء ونبل الأخلاق . .

وأخرج رءوف حافظة نقوده فأعطاه منها ورقتين من ذات الخمسة الجنيهات قائلا :

ـ حتى تفرج، ولا تؤاخذنى إذا قلت لك إننى مرهق بالعمل، وإنه من النادر أن تجدنى خاليا كما وجدتنى الليلة .

فتناول الجنيهات باسما وصافحه بحرارة، ثم قال بنبرة رجاء :

ـ ربنا يتم نعمته عليك . .

الفصل الرابع

هذا هو رءوف علوان، الحقيقة العارية، جثة عفنة لا يواريها تراب. أما الآخر فقد مضى كأمس أو كأول يوم فى التاريخ أو كحب نبوية أو كولاء عليش. أنت لا تنخدع بالمظاهر فالكلام الطيب مكر والابتسامة شفة تتقلص والجود حركة دفاع من أنامل اليد ولولا الحياء ما أذن لك بتجاوز العتبة. تخلقنى ثم ترتد، تغير بكل بساطة فكرك بعد أن تجسد فى شخصى، كى أجد نفسى ضائعا بلا أصل وبلا قيمة وبلا أمل، خيانة لئيمة لو اندك المقطم عليها دكا ما شفيت نفسى. ترى أتقر بخيانتك ولو بينك وبين نفسك أم خدعتها كما تحاول خداع الآخرين؟، ألا يستيقظ ضميرك ولو فى الظلام؟، أود أن أنفذ إلى ذاتك كما نفذت إلى بيت التحف والمرايا بيتك، ولكنى لن أجد إلا الخيانة. سأجد نبوية فى ثياب رءوف أو رءوف فى ثياب نبوية أو عليش سدرة مكانهما وستعترف لى الخيانة بأنها أسمج رذيلة فوق الأرض. من وراء الظهر تبادلت الأعين نظرات مريبة قلقة مضطربة كتيار الشهوة التى يحملها. . كالقطة الزاحفة على بطنها فى هيئة الموت نحو

عصفورة سادرة. وغلبت الانتهازية ثمالة الحياء والتردد فقال عليش سدره فى ركن عطفة أو ربما فى بيتى «سأدل البوليس عليه لنتخلص منه»، فسكتت أم البنت، سكت اللسان الذى طالما قال لى بكل سخاء أحبك يا سيد الرجال. هكذا وجدت نفسى محصورا فى عطفة الصيرفى ولم يكن الجن نفسه يستطيع أن يحاصرنى، وانهالت على اللكمات والصفعات. كذلك أنت يا رءوف، لا أدرى أيكما أخون من الآخر، ولكن ذنبك أفظع ياصاحب العقل والتاريخ، أتدفع بى إلى السجن وتثب أنت إلى قصر الأنوار والمرايا، أنسيت أقوالك المأثورة عن القصور والأكواخ؟. أما أنا فلا أنسى!

وبلغ جسر عباس فجلس على أريكة حجرية وانتبه إلى الطريق لأول مرة. وقال بصوت مسموع كأنما يخاطب الظلام «خير البر عاجله، الساعة وقبل أن يفيق من دهشته!» لا سبيل إلى التردد فمهنتك هى مهنتك، صالحة وعادلة، وبخاصة عندما تطبق على فيلسوفها. وعندما أفرغ من تأديب الأوغاد فسأجد فى الأرض متسعا للاختفاء. هل يمكن أن أمضى فى الحياة بلا ماض فأتناسى نبوية وعليش ورءوف؟، لو استطعت لكنت أخف وزنا وأضمن للراحة وأبعد عن حبل المشنقة ولكن هيهات أن يطيب العيش إلا بتصفية الحساب. لن أنسى الماضى لسبب بسيط هو أنه حاضر ـ لا ماض ـ فى نفسى. وستكون مغامرة الليلة ابتداء أفتتح به العمل، وستكون مغامرة دسمة. وجرى النيل كأمواج من الظلام تنغرس فى جنباتها أسهم الضياء المنعكسة من مصابيح الشاطئ. وساد صمت شامل مريح، ثم دنت النجوم من الأرض عندما اقترب

الفجر. وقام عن مجلسه فتمطى ثم سار على مقربة من الشاطئ نحو المكان الذى جاء منه. جعل يتقدم على مهل متحاشيا الأنوار الضئيلة الباقية حتى هذه الساعة من الفجر، وتباطأ أكثر عندما لاح لعينيه القصر الخالى من نواحيه الثلاث. وراقب الطريق بحدة. أرضه وأسوار القصور والشاطئ ثم استقرت عيناه على القصر. بدا القصر مسدل الجفون تحرسه الأشجار من كل جانب كالأشباح. نامت الخيانة فى هدوء بديع لا تستحقه ألبتة. مغامرة دسمة ستعطى ردا حاسما على خداع العمر كله. وعبر الطريق فى خطوات طبيعية دون تلفت أو حذر، ثم سار بحذاء السور فى الشارع الجانبى وهو يتفحص ما أمامه بعناية شديدة، فلما اطمأن إلى خلو المكان مال فجأة لصق السور منغرزا فى الياسمين والبنفسج وتوقف عن أية حركة. إن يكن فى القصر كلب ـ غير صاحبه ـ فسيملأ الدنيا نباحا، ولكن لم تند عن الصمت همسة واحدة. يا رءوف.. تلميذك قادم ليحمل عنك بعض متاع الدنيا. وتسلق السور بخفة وبأطراف محنكة كأنها أطراف قرد ولم تعقه الأغصان الكثيفة الملتفة الغارقة فى الأوراق والأزهار، ثم اعتمد على قبضيته ورفع جسمه بقوته الذاتية إلى ما فوق الأسنان المدببة وهبط به حتى اشتبكت ساقاه بالأغصان فى الداخل فلبد بها ريثما يسترد أنفاسه، وليراقب الحديقة المكتظة بالشجيرات والأشجار والظلمة. عليك أن تصعد إلى السطح ومنه تهبط إلى الداخل حتى تعرف طريقك، لا آلة معك ولا بطارية ولا فكرة سابقة عن المكان. لم تسبقك نبوية إليه لتعمل غسالة أو خادمة بعض الوقت فهى اليوم مشغولة بعليش سدرة. وقطب بعنف ليطرد عنه هذه

الأفكار، ونزل بحذر إلى الأرض، ثم زحف على أربع متجها نحو جدار الفيللا. ودار مع البناء متحسسا الحيطان حتى عثر على ماسورة . . وأخذ يتسلق بمهارة البهلوان. وكان السطح مقصده غير أنه مر بنافذة مفتوحة غير بعيدة منه، وفى الحال قرر تجربتها . . سدد ساقه نحو النافذة حتى انطرحت على حافتها، وشد أعصاب يديه متنقلا بهما فوق كورنيش الحائط حتى استقر جميعه فوق حافة النافذة. وانزلق إلى الداخل فوجد نفسه فى مكان حدس أنه مطبخ. وضايقته كثافة الظلمة فجد باحثا عن الباب، وكان يتوقع ظلمة أكثف فى الداخل، ولكنه حلم بحافظة نقود رءوف أو بعض التحف، وكان عليه أن يتقدم . تسلل من الباب متلمسا الجدار بيديه، وقطع مسافة غير قصيرة وكثافة الظلام تكاد تصده، ثم أحس تياراً خفيفا من الهواء يلفح وجهه. من أين يجئ الهواء؟. وانعطف مع انعطاف الجدار الأملس وتقدم مادا ذراعه محركا أصابعه حتى لمست أسلاكا بلورية مسدلة محدثة وسوسة خفيفة انقبض لها قلبه. ستارة لا شك فى ذلك، اقترب الآن من هدفه، واتجه فكره نحوعلبة الثقاب فى جيبه دون أن يمد لها يدا، وفتح بخفة ثغرة دلف منها إلى الداخل، وضيق ما بين ذراعيه ليعيد الستارة إلى وضعها الطبيعى دون صوت. وتقدم خطوة فارتطم بمقعد أو بقائم ما لا يدريه، وتفادى منه وهو يرفع رأسه. متلمسا نوراخافتا ساهرا ـ وقد تعلق أمله بالوصول إليه ـ ولكنه رأى ظلاما مطبقا كالكابوس. وفكر فى إشعال عود ثقاب للحظة واحدة. . وبغتة دهمه نور ساطع من كل ناحية. نور شديد انقض عليه كلكلمة قاضية. انغلق جفناه بلا إرادة ولما فتحهما رأى

رءوف علوان على بعد ذراعين. على بعد ذراعين فى روب طويل بدا فيه عملاقا، ويده مدسوسة فى جيبه مشدودة كأنها تقبض على سلاح، هكذا ظن. ونظرة عينيه الباردة زادت قلبه المهزوم برودة، وانطباق شفتيه الناطق بالعداوة والكراهية. والصمت القاتل أثقل من سور السجن، والسجان عبد ربه سيقول هازئا ما أسرع أن رجعت. وانطلق صوت نحاسى من وراء ظهره يتساءل:

ـ ننادى البوليس؟

فالتفت وراءه فرأى ثلاثة من الخدم يقفون صفا غير أن رءوف خرج عن صمته قائلا:

ـ اذهبوا خارجا وانتظروا . .

ولما فتح الباب ثم أغلق وراءهم أدرك خطفا أنه باب خشبى ذو زخارف عربية محلى الرأس بحكمة أو مثل أو آية من الصدف. وأرجع رأسه من التفاتته ليتلقى النظرات العابسةويسمع صوته الخشن وهو يقول:

ـ من الغباء أن تجرب ألاعيبك معى أنا، أنا فاهمك وحافظك عن ظهر قلب . .

لم ينبس ومضى يفيق من ضربة المفاجأة ولكن على استسلام كاليأس وإن داخله شعور بأنه لن يسلم إلى القبضة التى أفلت منها أمس أو هكذا شعر . .

ـ كنت فى انتظارك، على أتم استعداد، بل ورسمت لك طريق السير، وددت لو يخطئ ظنى، ولكن أى سوء ظن فيك يخطئ؟!

غض بصـره لحظات فرأى مـا تحت قدميـه من مشـمع لامع ثم رفعهما دون أن يحاول الخروج عن صمته .

ـ لا فائدة ، لن تنتهى من حقارتك ، وستموت حقيرا ، وخير ما أفعله أن أسلمك إلى البوليس . .

فاختلج جفناه وانفرجت شفتاه فى عصبية ، فتساءل رءوف بحدة :

ـ ماذا جئت تريد؟

فغض بصره مرة أخرى .

ـ أنت تفـصح عن عـداوتك ، نسـيت الإحسـان وتركـزت فى الحقد والحسد ، إنى أعرف أفكارك بقدر ما أعرف حركاتك . .

وبصوت خافت وبعينين تختفيان فى الأرض قال :

ـ رأسى دائر ، مازال دائرا منذ خرجت من السجن . .

ـ كذاب ، لا تحاول خداعى ، أنت تتوهم أنى صرت واحدا من الأغنياء الذين كنت أحمل عليهم ، وعلى هذا الأساس أردت أن تعاملنى . .

ـ ليس الأمر كذلك . .

ـ إذن لم تسللت إلى بيتى ؟ ، لم تريد أن تسرقنى؟

تردد سعيد مليا ثم قال :

ـ لا أدرى ، لست فى حالة طبيعية ، وأنت لن تصدقنى !

ـ طبعا، لأنك تعلم أنك كاذب، لم تقتنع بكلماتى الطيبة، ثار حسدك وغرورك، اندفعت كالجنون نفسه كما هى عادتك، ولك ما تشاء فستجد نفسك فى السجن مرة أخرى . .

فقال فى تسليم :

ـ اعذرنى، مازلت أعيش بعقلية السجن وما قبله . .

ـ لا عذر لك، أنا أقرأ أفكارك، قرأت كل جملة مرت بعقلك، كل جملة، الصورة الكاملة التى تتصورنى فيها، والآن آن لى أن أسلمك للبوليس . .

فمد يده كالرجاء قائلا :

ـ كلا . .

كلا؟! ، ألا تستحقه؟

ـ بلى، ولكن كلا . .

فنفخ غاضبا وهو يقول :

ـ إن رأيتك مرة أخرى فسأسحقك كحشرة . .

وهم بالتحرك فى سبيل النجاة ولكنه صاح به :

ـ أرجع النقود!

فجمد بصره دقيقة، ثم دس يده فى جيبه فأخرج الورقتين فتناولهما الآخر قائلا :

ـ لا ترنى وجهك مرة أخرى . .

عاد إلى شاطئ النيل وهو لا يصدق أنه نجا ولكن راحة النجاة تكدرت بالهزيمة. وعجب تحت أنفاس الفجر الرطيبة كيف أنه لم ينتبه إلى هوية الحجرة التى ضبط فيها وأنه لم يكد يرى منها إلا بابها المزخرف وأرضها الشمعية. واستسلم لرحمة الفجر الندية متعزيا إلى حين عن كل شىء حتى ضياع الورقتين، ثم رفع رأسه إلى السماء فهاله لمعان النجوم المتألق فى هذه الساعة من الفجر. .